دولة الإمارات العربية المتحدة
دبي

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

إسلامية فكرية محكّمة

العدد السادس و العشرون
شوال ١٤٢٤ هـ - ديسمبر ٢٠٠٣م

مَجلَّــة
كُلِّيَّةِ الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ والعربيَّةِ

إسلاميَّة، فكريَّة، محكَّمة
نصف سنويَّة

العدد السادس والعشرون
شوال ١٤٢٤هـ - ديسمبر ٢٠٠٣م

رئيس التَّحرير

أ. د. محمــد خليفــة الدنّــاع

سكرتير التَّحرير

د. مصطفى عدنـان العيـثاوي

هيئة التَّحرير

أ. د. رضوان مختار بن غربية
د. محمد الحــافظ النقــــر
د. عــمر بــو قــــــرورة

ردمد: ١٦٠٧-٢٠٩X

تفهرس المجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ١٥٧٠١٦

المحتويـــــــات

● **الافتتاحية**

رئيس التَّحرير ١٣-١٤

● **مسألة خلق القرآن ومثال العلاقة بين الأزلي والمخلوق في الفكر الإسلامي**

الدكتور: عبد الحكيم أجهر ١٧-٥٢

● **المحدّث محمد يوسف البنُّوري وكتابه معارف السنن، شرح سنن الترمذي**

الدكتور: ولي الدين تقي الدين الندوي ٥٣-٩٢

● **العولمة الاقتصادية وسبل تفعيل إقامة سوق إسلامية مشتركة**

الدكتور: عمر صالح بن عمر ٩٣-١٤٤

● **حكم زواج الكتابية بين الاطلاق والتقييد**

الدكتوره: روحية مصطفى أحمد ١٤٥-٢٠٢

● **دُخَان التَبْغ حقيقته وتاريخه**

الدكتور: قاسم علي سعد ٢٠٣-٢٣٦

● **المضاربة المشتركة في المصارف الإسلامية**

الدكتور: عبد المجيد محمد السوسوه ٢٣٧-٢٧٠

● **أمهات الأدوات الأحادية في الأبواب النحوية**

الدكتور: مصطفى عدنان العيثاوي ٢٧١-٣١٦

● **شعر ابن شهيد الأندلسي، دراسة فنية**

الدكتور: خالد لفتة اللامي ٣١٧-٣٥٤

● **البلاغة عند العلوي (٧٤٩ هـ) بين التنظير والتيسير**

الدكتور: بن عيسى باطاهر ٣٥٥-٣٩٢

• **FEATURE GEOMETRY & FEATURE SPREADING AN AUTO SEGMENTAL ANALYSIS OF EMPHATIC CONSONANTS IN ARABIC**

Dr. Lahlal Mohammed ..... 5 - 32

دُخَـان التَّبْـغ
حقيقته وتاريخه

الدكتور
قاسم علي سعد*

* أستاذ الحديث وعلومه المساعد في جامعة أم القرى ـ السعودية

ملخص البحث:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على الهادي الأمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن الناس لم يُبتلوا في صحتهم واقتصادهم وبيئتهم ببلية أوسع ضرراً ، وأشمل خطراً ، وأسوأ أثراً من تعاطي دُخَان التَّبْغ . بل إن هذا الضرر الفادح يتعدى الحدود الصحية والاقتصادية والبيئية ليصيب الدين والخلق .

لذا هبّ العلماء والأطباء من كل صنف و قَبيل ، ومن كل حَدَب وصوب ؛ لإظهار مضارّه ومهالكه ، والتحذير من مباديه وعواقبه ، حتى استوعبوا الكثير من جوانبه . لكنهم لم يعتنوا بذكر تاريخه العناية المطلوبة ، مع أن التاريخ هو الصفحة الأولى في كتاب الإصلاح . لأجل هذا انتدبت لدراسة تاريخ الدُّخَان ، بدءاً من نشأته الأولى ، وانطلاقاً في أزمنة التاريخ المتعاقبة ، التي تُظهر إقحام هذه البضاعة الرديئة في مجتمع المسلمين لإيذائهم والإضرار بهم ، وتوضح مدى تنبه أولي الأمر لهذا المرض الزُّؤاف ، والسم الزُّعاف .

ثم رأيت أنه لا بد قبل ذلك من كشف حقيقة الدُّخَان ، لأن الكلام عن الشيء فرع عن تصوره . وعليه فقد تم تقسيم هذا البحث إلى مطلبين ، أولهما : حقيقة الدُّخَان ، والآخر: تاريخه . ومن الله تعالى أستمد العون والتوفيق .

المطلب الأول
حقيقة الدُّخَان

(أ) تعريفه:

الدُّخَان: هو التَّبْغ، والتَّبْغ نبات من الفصيلة الباذنجانية، ذو أوراق كبيرة، سام، مر الطعم، تستعمل أوراقه بعد تجفيفها تدخيناً ومَضْغاً وسَعوطاً [1].

وأما التدخين: فهو مص دخان التَّبْغ واستنشاقُه، وذلك بعد حرقه [2].

(ب) أسماؤه وألقابه:

تعددت أسماء الدُّخَان وألقابُه في العالم الإسلامي، ودونك عَرْضَها وتصنيفَها:

١ - تَبْغ [3]، وتَبَغا [4]، وتَبَغه [5]، وتابغ [6]، وتابغا [7]، وتابغه [8]، وتباغا [9].

---

(١) المعجم الوسيط - إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة - (مادة: تبغ) ٨٢/١، (ومادة: دخن) ٢٧٦/١، وعمدة المحتاج في علمي الأدوية والعلاج للطبيب أحمد بن حسن الرَّشيدي (مادة: التَّبْغ) ٤٥/٤، ومحيط المحيط لبطرس لبستاني (المادة نفسها) ٦٧، (ومادة: دخن) ٢٧٢، وإعلان الحجة وإقامة البرهان على منع ما عم وفشا من استعمال عشبة الدُّخَان للعلامة السيد محمد بن جعفر الكَتّاني ٥٠، ٥١، وفتوى في حكم شرب الدُّخَان للعلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ ١١ - ١٢، والتدخين وأمراض الفم للدكتور مصباح أحمد قويدر ٧، والتدخين بين المؤيدين والمعارضين للدكتور هاني عَرموش ٩، والتدخين هاجس العصر للدكتور عبد الغني عرفة ٢٥، والطب الوقائي بين العلم والدين للدكتور نضال سميح عيسى ٢٧٤، والسيجارة مقبرة المدخنين لشعيب الغباشي ١٥.

(٢) التدخين بين الطب والدين للدكتور موسى توفيق الأقطم ١ .

(٣) الصلح بين الإخوان في إباحة الدُّخَان للعلامة عبد الغني بن إسماعيل النَّابُلُسي ١٩ ب، وتحفة الإخوان في تحريم الدُّخَان للعلامة عبد القادر القُسَنْطيني ١٠٤، وإعلان الحجة ٥١، ١٦١، ورسالة في الشاي والقَهْوة والدُّخَان للعلامة جمال الدين القاسمي ٣٢، وأدبيات الشاي والقَهْوة والدُّخَان للمؤرخ محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط - صاحب كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم - ٧، والمعجم الوسيط (مادة: تبغ) ٨٢/١، ومحيط المحيط (المادة نفسها) ٦٧، والتداوي بالأعشاب للدكتور أمين رويحة (قسم الأعشاب السَّامة، المادة السابقة) ٤٢٩، والصّحاح في اللغة والعلوم لنديم مَرْعَشلي وأسامة مَرْعَشلي (المادة السابقة) ١ / ١٣٦ .

(٤) تحفة الإخوان ١٠٤ .

(٥) هدية الإخوان في شجرة الدُّخَان للعلامة محمد مرتضى الزَّبيدي - صاحب تاج العروس من جواهر القاموس - ١٢٠ .

(٦) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري السَّلاوي ٥ / ١٢٦ .

(٧) تحفة الإخوان ١٠٤، وإعلان الحجة ١٦١، ٢٠٤ .

(٨) الصلح بين الإخوان ١٩ ب، والنوازل لعلي بن عيسى الحسني العَلمي ٣ / ٢٠٨، ٢٠٩ .

(٩) إعلان الحجّة ١٤٩ .

وطَبْغ [١٠]، وطَبَغَه [١١]، وطابغا [١٣]، وطابغه [١٣].

وطَبَقا [١٤]، وطَبَقه [١٥]، وطابقو [١٦].

وتُنْباك [١٧]، وتُنْ باكي [١٨]، وتاباك [١٩]، وتُباك [٢٠].

وطابا [٢١]، وتابا [٢٢]، وطابه [٢٣]، وطاب [٢٤].

وطُبّاق [٢٥].

---

(١٠) إعلان الحجة ١٦٩ ، وتاريخ السودان للمؤرخ عبد الرحمن السَّعْدي ١٨٠ .

(١١) هدية الإخوان ١٢٠ .

(١٢) إعلان الحجة ١٦١ ، ١٧٣ .

(١٣) الصلح بين الإخوان ١٩ ب ، والنوازل ٣ / ٢٠٩ .

(١٤) تحفة الإخوان ١٠٤ .

(١٥) هدية الإخوان ١٢٥ .

(١٦) النوازل ٣/ ٢٠٦ . وهذا اللفظ مع ما سبقه من ألفاظ لا تُعَدّ أسماء مختلفة ، وإنما هي اسم واحد اختلف النطق به .

(١٧) الصلح بين الإخوان ١٩ ب ، وتحفة الإخوان ١٠٤ ، وهدية الإخوان ١٢٠ ، وإعلان الحجة ١٦١ ، وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء للعلامة محمد راغب الطبّاخ ٣/٢٠٣ . وينظر كتاب السيجارة مقبرة المدخنين ٢٢ .
وصار هذا الاسم يطلق على نوع خاص من أنواع التَّبْغ ، ففي الموسوعة الفقهية التي تصدرها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت (مادة : تبغ) ١٠/١٠١ ما لفظه : «ومن أسمائه : الدُّخَان والتُّتُن والتُّنْباك ، لكن الغالب إطلاق هذا الأخير على نوع خاص من التَّبْغ كثيف ، يدخن بالنارجيلة لا باللفائف» . وفي عمدة المحتاج ٤ /٤٥ : «التَّبْغ اشتهر في بلادنا بالدُّخان والتُّتُن ، ومن أنواعه التُّنْباك».

(١٨) قال العلامة المفتي محمد فقهي العيني نزيل قسطنطينية في رسالته في حكم التُّتُن والقَهْوة ٨٣ أ : «لما شاع بين الرجال والنساء في البلاد الإسلامية استعمال الورق المسمى في ديار العرب بالدُّخَان، وفي الديار الرومية بالتُّتُن ، وفي الفرس بتُنْ باكي ...».

(١٩) أدبيات الشاي والقَهْوة والدخان ٧ .

(٢٠) عمدة المحتاج ٤٥/٤ ، والدُّخَان ودخوله إلى الشرق لأمين معلوف-ضمن مجلة المُقْتَطَف ، المجلد (٥٥)، ٤٦٢/٦-. وقال صاحب العمدة : «والتَّبْغ يسمى بالإفرنجية : تُباك ، ونيقوسيان ... وباللسان النَّباتي : نيقوسيانا تُباكوم».

(٢١) إعلان الحجة ١٦٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢٢) محيط المحيط (مادة : تبغ) ٦٨ ، وفيه :«وأهل السودان الشرقي يسمونه التابا».

(٢٣) النوازل ٣/٢٠٨ ، ٢٠٩ ، وهدية الإخوان ١٢٠ ، وإعلان الحجة ٧٢ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، والحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين للدكتور محمد حجّي ١ / ٢٥٩ ، ٢٦١ .

(٢٤) تحفة الإخوان ١٠٤ .

(٢٥) الصلح بين الإخوان ١٩ب ، ٢٥ب ، وهدية الإخوان ١١٨ ، وإعلان الحجة ٥٠ ، وأدبيات الشاي والقهوة والدُّخَان ٧ ، والمعجم الوسيط ٥٥١/٢ ، والسيجارة مقبرة المدخنين ٢١-٢٢.
وثَمّة كلام حول هذا الاسم سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى .

٢ – وتُتُن [٢٦]، وتُتُون [٢٧]، وتُوتُون [٢٨].

٣ – وبَيْتون [٢٩].

٤ – وشجرة القمر [٣٠].

وتسميته بالدُّخَان شائعة قديماً وحديثاً [٣١]، وهو الاسم العربي لهذه المادة [٣٢].

فالمجموعة الأولى مشتقة – كما يبدو – من اسم إحدى الجزر الشرقية في أمريكا الوسطى، وهي تُباجو (تُباكو)، وبه سمى الأوروبيون الدُّخَان. قال الطبيب المصري أحمد بن حسن الرَّشِيدي: «وهو نبات أصله من الأميرقة، واستُنْبت الآن [٣٣] بالآسيا ومعظم

(٢٦) رسالة مختصرة من الفوائد الفاخرة في أمور الآخرة – كلاهما – للعلامة مُلاَّ حسين بن إسكندر الرُّومي الحنفي ٢ ب، ٣ أ، ٣ ب، ورسالة في حكم التُّتُن والقَهْوة ٨٣ أ، ٨٤ أ، ٨٥ أ، والصلح بين الإخوان ١٥ ب، ١٨ ب، ١٩ أ، ١٩ ب، وغيرها، وتحفة الإخوان ١٠٤، وإعلان الحجة ١٥٣، ١٦١، ١٨٦، ٢١٠، ورسالة في الشاي والقَهْوة والدُّخَان ٣٢، وأدبيات الشاي والقَهْوة والدّخَان ٧، ومحيط المحيط (مادة: تبغ) ٦٨، والتداوي بالأعشاب (قسم الأعشاب السامة، المادة السابقة) ٤٢٩، والصّحاح في اللغة والعلوم (المادة نفسها) ١ / ١٣٦، وروائع الطب الإسلامي للدكتور محمد نزار الدّقر ٣ / ٨٧.

وقد تحدث بطرس البستاني في محيط المحيط (مادة: تبغ) ٦٨ عن مصدر كلمة (تُتُن) فقال: «ويعرف عند الأتراك وفي بر الشام بالتُّتُن، ومعناه بالتركية: دُخَان». وسيأتي عن عبد القادر القَسَنْطيني بعد قليل إن شاء الله تعالى أنها من لغة الفرس أيضا، وسبقه إلى هذا العلامة عبد الغني النابلسي في الصلح بين الإخوان ١٩ ب إذ قال: «التُّتُن وهو أشهر أسمائه، ومعنى هذا اللفظ في اللغة التركية والفارسية مطلق الدُّخَان». وذكر بطرس البستاني في محيط المحيط أيضاً (مادة: تُتُن) ٦٨ لفظ الترك لها فقال: «معرّب دُوْتُن بالتركية، ومعناه: دُخَان».

(٢٧) الدُّخَان ودخوله إلى الشرق ٤٦٢/٦، ٤٦٣.

(٢٨) إعلام النبلاء ٣ /٢٠٣، والسيجارة مقبرة المدخنين ٢٢. وينظر ما تقدم في الفقرة التي قبل السابقة.

(٢٩) ينظر ما سيأتي قريباً – إن شاء الله تعالى – نقلاً عن الرّشِيدي. وقال محمد طاهر الكردي في رسالته: أدبيات الشاي والقَهْوة والدُّخَان ٧: «الدُّخَان في عصرنا يطلق على جميع أنواع التَّبْغ ... وكان يسمى في أوروبا: التاباك والبَيْتون».

(٣٠) إعلان الحجة ١٦١، والحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ٢٤٦/١. قال الدكتور حجي في الكتاب المذكور: «التَّبْغ نبات معروف عند قدماء الهنود والفرس بأسماء أخرى، واستعملوه في مداواة الجراح وأغراض طبية متعددة، وعنهم أخذه العرب وذكروه في كتبهم الطبية باسم شجر القمر». ويظهر لي أن شجر القمر غير نبات التَّبْغ، وَهِمَ البعض في أمره كما وَهِمُوا في الطُّبّاق. والله أعلم.

(٣١) تحقيق البرهان في شأن الدخان الذي يشربه الناس الآن للعلامة مَرْعي بن يوسف الكَرْمي ٨٧، ١٠٥، وتحفة الإخوان ١٠٤، وهدية الإخوان ١٢٠، وإعلان الحجة ١٤٧ – ١٤٩، ١٥٠، ١٥٤، ١٥٥ – ١٥٧، ورسالة في الشاي والقَهْوة والدُّخَان ٣٢، والمعجم الوسيط ٢٧٦/١، والتداوي بالأعشاب ٤٢٩.

(٣٢) رسالة في حكم التُّتُن والقَهْوة ٨٣ أ.

(٣٣) توفي صاحب العمدة سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م.

الأوربا، وأعظم أنواعه الآن ما يكون بالشام، واستُنبت عندنا بمصر كثيرا... لما دخل الأندلسيون[٣٤] إلى الأميرقة أول مرة وجدوا التَّبْغ حول المدينة المسماة (تُباجو) - بالجيم كما هو في كتب الجغرافيين لا بالكاف [٣٥] - وهي إحدى جزائر أنتيله [٣٦]، فسموه باسم تلك المدينة، ومنه أخذ الإفرنج اسم (تُباك). وقبائلنا يسمونه التَّبْغ، حتى بلغني من الثقات أن اسمه في بلاد السودان كذلك، واسمه عند أهل مدينته: (بَيتون) بفتح الباء الموحدة»[٣٧].

وقد أدرجت في هذه المجموعة كلمة (طابا) وتوابعها اجتهادا، لتقارب ألفاظها مع ألفاظ سائر المجموعة، مستبعداً ما نقله مفتي فاس إبراهيم بن عبد الرحمن الجلالي الزياتي من أن تسميته بطابة مأخوذة من أحد أسماء مدينة النبي ﷺ، وهو من فعل الفسقة، وهو حرام[٣٨].

ورأى بعض العلماء أن أصل تلك الكلمات في المجموعة الأولى هو كلمة (طُبّاق) التي خَتَمْتُ بها - والطُبّاق اسم عربي لنوع من الشجر ينبت في جبال مكة، ويُتطبب به[٣٩] -، وفي هذا يقول العلامة عبد القادر القُسَنْطيني: «وتسميتهم لها (طَبَقا) تحريف عن الاسم العربي، كما حُرِّف هذا إلى (تَبَغا)[٤٠]، وبعضهم يُشْبع التاء المثناة فوق ألفاً، وبعضهم يُسقط ألف القصر ويُسَكِّن حركة الباء الموحدة... وبعضهم يقول: (طاب)، وهذا كله في اللغة البربرية. وأما لغة الفرس والأتراك، فيسمونه: (التُّتُن)، كما يسمى: (التُّنْباك). والشائع في لغة العرب الآن على وجه الغلبة: (الدُّخَان)»[٤١].

---

(٣٤) يقصد الإسبان.

(٣٥) فالاختلاف في النطق فقط.

(٣٦) يعني جزر الأنتيل، الواقعة في الخليج الكبير بين الأمريكتين: الشمالية والجنوبية.

(٣٧) عمدة المحتاج ٤ / ٤٥.

(٣٨) النوازل ٣ / ٢٠٩، وإعلان الحجة ١٦١.

ويبدو لي أن كلمة (طابا) أو (تابا) مقتبسة من الفرنسيين الذين يسمون الدُّخَان بهذا اللفظ ، ويكتبونه على الشكل التالي (Tabac)، ولا يظهرون الحرف الأخير في النطق . والإسبان يسمونه : تَباكو (Tabaco) ، وأما شعوب الأَرَواك - الهنود الحمر - فيسمونه : تُباكو (Tobaco).

Grand larousse Universel 14/9997.

(٣٩) الصلح بين الإخوان ٢٥ ب - ٢٧ أ، تحفة الإخوان ٨٩ - ٩٠، وهدية الإخوان ١١٨ -١١٩.

(٤٠) في مطبوعة الكتاب: (تبغ) بإسقاط الألف، مع أن السياق يدل على ثبوتها.

(٤١) تحفة الإخوان ١٠٤.

وارتضى هذا الرأي أيضاً الإمام العلامة السيد محمد مُرْتَضَى الزَّبيدي فقال: «زعم كثير من أهل العصر – بل ومن قبلهم – من جِلَّة الفقهاء العارفين بالسنة والقرآن، والحكماء الماهرين في الفن والجائلين في الأقطار والبلدان، أن هذه الشجرة مجهولة الوصف والشان، وأنه لم يعرفها العرب من قديم الزمان... ولعمري هذا الزعم فاسد، كيف وقد ذكرها غير واحد من الأئمة الأعيان، كابن دُرَيد في الجمهرة... وسبقهم إمام العارفين أبو حنيفة الدِّيْنَوَري في كتاب النبات... قال: الطُّبّاق: بضم الطاء وتشديد المُوَحَّدة، أخبرني بعض أَزْد السَّرَاة قال: هو شجر نحو القامة، ينبت متجاورا... وله أوراق طوال دقاق خُضْر... يُضمد بها الكسر فيجبر، وله نَوْر أصفر مجتمع، ولا تأكله الإبل، ولكن الغنم، ومنابته الصخر مع العَرْعَر، والنحل تَجْرِسُه – (أي تلحسه) – ، والأَوعال أيضاً ترعاه. انتهى... وقد ظهر مما تقدم... أنها شجرة عربية، منابتها أرض الحجاز»[٤٢]. ثم قال: «وحرفوا – (يعني العرب) – في اسمها حسبما ساعدهم النطق به، فقالوا: تُنْباك – بضم المثناة الفوقية وسكون النون ثم موحدة وبعد الألف كاف –، وهو أقرب إلى اسمه الأصلي، وقال آخرون: تَبَغَه – بمثناة وموحدة وغين مفتوحات –، وهكذا أورده المتأخرون من الفقهاء في كتبهم، ومنهم من ينطق به بالطاء بدل التاء، ومنهم من سماها: طابه، وأما الآن فاشتهرت بالدُّخَان، وعليه التعبير عنها في سائر الأقطار والبلدان، باختلاف الألسنة والأزمان، وكأنهم نظروا إلى أقوى كيفية استعمالها فسموها كذلك»[٤٣].

وأنا أرجح الاشتقاق الأول، وأستبعد الانتزاع الآخر الذي مال إليه القُسَنْطيني والزَّبيدي، وذلك للانسجام بين اسم المادة ومصدرها، ولأن الطُّبّاق العربي غير التَّبغ عند التحقيق وإن اشتركا في بعض الأوصاف، فالطُّبّاق فيه منافع مذكورة، والتَّبْغ لا نفع فيه بل يكاد يكون ضرراً محضاً كما قرر الأطباء والعارفون، وقد ظُن به النفع الطبي في بعض الأزمان، لكن سرعان ما تلاشى هذا الوهم، وزالت الغَشَاوة، وظهر الحق.

وممن فَرّق بين التَّبْغ والطُّبّاق: الطبيب أمين رويحة في كتابه التداوي بالأعشاب (قسم

(٤٢) هدية الإخوان ١١٨، ١٢٠.

(٤٣) هدية الإخوان ١٢٠.

الأعشاب السَّامة، مادة: تبغ) حيث يقول: «تَبْغ، دُخَان: كلها مُوَلّدة، ومن أسمائه العامة: التُّتُن. وتسميته بالطُّبّاق غلط، فالطُّبّاق نبات آخر، وليس للتَّبْغ اسم عربي في المعاجم لأن مهده الأصلي في أميركا، وما كانت العرب تعرفه قبل كشفها»[٤٤]. وكذلك أمين معلوف في مقالته: الدُّخَان ودخوله إلى الشرق، قال: «والطَّبَقا هو اللفظ الإفرنجي، وهو من أصل أميركي لا من الطُّبّاق العربية كما ظن بعض علمائنا الأفاضل، فالطُّبّاق أو حشيشة البراغيث نبت يشبه رَعْراع أيوب كثيرا، وهو من فصيلته، وإنما يختلف عنه بلزوجته، وهو النبت المعروف في جبل لبنان بالطَّيُّون، ولا يزال يعرف في الحجاز بالطُّبّاق إلى يومنا»[٤٥]. وفي الموسوعة الفقهية (المادة نفسها) ورد ما لفظه: «ومما يشبه التَّبْغ في التدخين والإحراق: الطُّبّاق، وهو نبات عشبي معمَّر، من فصيلة المركبات الأنبوبية الزَّهْر، وهو معروف عند العرب خلافاً للتَّبْغ، والطُّبّاق لفظ معرَّب»[٤٦]. وفي المادة نفسها من كتاب الصحاح في اللغة والعلوم سُجِّل ما يلي: «وتسميته بالطُّبّاق غلط شنيع»[٤٧].

(جـ) أهم المواد الضارة في الدُّخَان:

يحتوي دُخَان التَّبْغ على آلاف المواد الضارة التي تتسبب العشرات منها في حدوث السَّرَطان القاتل[٤٨]، ومن أهم هذه المواد وأشهرها:

---

(٤٤) ٤٢٩.

(٤٥) ٦ / ٤٦٣.

(٤٦) ١٠ / ١٠١.

(٤٧) ١ / ١٣٦.

(٤٨) التدخين وسَرَطان الرئة والأمراض الأخرى للدكتور نبيل صبحي الطويل ٥١، والتدخين هاجس العصر ٣٤، ٤٠، والتدخين بين الطب والدين للدكتور غازي عبد اللطيف موسى ٥ - ٦.

وينظر كتاب التدخين وأمراض الفم ١٩ - ٢٠، والتدخين بين المؤيدين والمعارضين ١٣، والتدخين (دراسة علمية هادفة) للدكتور عز الدين الدنشاري والدكتور سينوت حليم دُوس ٢٣ - ٣٠، وروائع الطب الإسلامي ٣ / ٨٨ - ٨٩، ومشكلة التدخين والحل للدكتور لطفي عبد العزيز الشربيني ٣٣.

١ – النِّيْكُوتين (التَّبْغين): وهو مادة طَيّارة لاذعة سامّة مُخَدِّرة، سريعة الانتشار في أنسجة الجسم وسوائله، تجلب النَّشْوة وتُحدث الإدمان. وتستعمل في صناعة المُبيدات الحشرية[٤٩].

ومتوسط ما يمتصه دم المدخن من نِيْكُوتين دَخينة (لِفافة أو سيجارة) واحدة: (٢,٥) مِلِّيجرام، بينما يبلغ في تدخين علبة كاملة مؤلفة من عشرين لِفافة (٥٠) مِلِّيجرام، وهذا القدر كاف لقتل أي شخص يُحقن به في الوَريد[٥٠].

ومن مضار النِّيْكُوتين الفورية بالجسم: ارتفاع ضغط الدم، وزيادة دقات القلب واختلالُها، وانقباض الأوعية الدموية في الأطراف، وغيرُها الكثير[٥١]. كما أن

بعض تحولاته الكيميائية تساعد في حدوث السَّرَطان المرعب[٥٢].

٢ – أول أُكْسِيد الكَرْبون (الفحم): وهو غاز سامّ قاتل، شديد القابلية للاتحاد مع خِضاب الدم (الهِيمُوجلُوبين) الموجود داخل كُرَيَّات (جُسيمات) الدم الحُمْر، منازعاً بذلك غاز الأُوْكْسِيجين الذي تنخفض نسبته حينئذ في خلايا الدم، فيؤدي إلى اضطراب جميع أنسجة الجسم وتسممها[٥٣].

---

(٤٩) عمدة المحتاج (مادة: النِّيْكُوتين) ٤/٥٣، والتدخين وأمراض الفم ١٣، ١٥، والتدخين بين المؤيدين والمعارضين ١٤، والتدخين هاجس العصر ٣٥ – ٣٦، والتدخين بين الطب والدين للدكتور غازي عبد اللطيف موسى ٩، والتدخين بين الطب والدين للدكتور موسى توفيق الأقطم ٨، وروائع الطب الإسلامي ٣ / ٨٨، ومشكلة التدخين والحل ٣٢.

(٥٠) التدخين وسَرَطان الرئة ٥١، والتدخين وأمراض الفم ١٤ – ١٥، والتدخين بين المؤيدين والمعارضين ١٤، ٩٢، وروائع الطب الإسلامي ٣ / ٨٨، والطب الوقائي بين العلم والدين ٢٧٦.

(٥١) التدخين وسَرَطان الرئة ٥١، والتدخين وأمراض الفم ١٥، والتدخين بين الطب والدين للدكتور غازي عبد اللطيف موسى ٨ – ٩، والطب الوقائي بين العلم والدين ٢٧٥، ومشكلة التدخين والحل ٣٢، واحذر التدخين – رسالة أعدها قسم التثقيف الصحي بدائرة الصحة والخدمات الطبية في إمارة دبي – ٣.

(٥٢) التدخين (دراسة علمية هادفة) ٢٨.

(٥٣) التدخين وأمراض الفم ١٨، والتدخين بين المؤيدين والمعارضين ١٦ – ١٧، والتدخين هاجس العصر ٣٥، ٤٠ – ٤١، والتدخين بين الطب والدين للدكتور غازي عبد اللطيف موسى ٦ – ٨، والتدخين بين الطب والدين للدكتور موسى توفيق الأقطم ٩، وراوئع الطب الإسلامي ٣ / ٨٨، ومشكلة التدخين والحل ٣٣، واحذر التدخين ٤.

وتكون نسبة هذا الغاز مرتفعة في دم المدخن، قال الدكتور غازي عبد اللطيف موسى: «ويحتوي دم المدخن على نسبة من هذه المادة السامّة، قد تصل إلى (٢٠) بالمئة في بعض الحالات، في حين أن نسبة (٦٠ - ٨٠) بالمئة تؤدي إلى الإصابة بالتسمم والوفاة»[٥٤].

ومن أهم مخاطر أول أُكْسِيد الكَرْبون على جسم المدخن: جعله عرضة للإصابة بالذبحة الصدرية، والجلطة في شرايين القلب وشرايين الدماغ[٥٥].

٣ - القَطِران (القار): وهو مادة صفراء زيتية مُخَرِّشة، تتسبب في حدوث السَّرَطان وأمراض الرئة[٥٦].

ومتوسط ما يمتصه دم من يدخن علبة من اللفائف كل يوم على امتداد سنة كاملة (٨٥) جراماً من القَطِران، وهو مقدار كبير قاتل لولا نظام طرح السموم في الجسم[٥٧]، «ولا تَقْتُلوا أَنْفُسَكُم إنَّ الله كان بكم رَحِيماً»[٥٨].

وبهذا القدر يتم الكلام الموجز عن حقيقة الدُّخَان التي تنذر من خلال فقراتها بالخطر الدُّهَام، والموت الزُّؤام.

---

(٥٤) التدخين بين الطب والدين ٧.

(٥٥) المصدر السابق ٧ - ٨، واحذر التدخين ٤.

(٥٦) التدخين وسَرَطان الرئة ٥٢ - ٥٣، والتدخين وأمراض الفم ١٩، ٢١، والتدخين بين المؤيدين والمعارضين ١٧، والتدخين هاجس العصر ٤١، والتدخين بين الطب والدين للدكتور غازي عبد اللطيف موسى ٥، والتدخين بين الطب والدين للدكتور موسى توفيق الأقطم ١٠، ومشكلة التدخين والحل ٣٢، واحذر التدخين ٣.

(٥٧) التدخين وسَرَطان الرئة ٥٢، والتدخين بين المؤيدين والمعارضين ١٨.

(٥٨) سورة النساء: من الآية (٢٩).

المطلب الثاني

تاريخ الدُّخَان

(أ) المصدر الأول للدُّخَان:

اقتبس الناس الدُّخَان نباتاً واستعمالاً من وراء بحر الظلمات (المحيط الأطلسي).

ويقال: إن أول من شربه من الأوروبيين (كريستوفر كُوْلُوْمْبُس)[٥٩] الإيطالي الجَنَوي[٦٠]، الذي عرض على الملك الإسباني (فرديناند الثاني) وزوجته الملكة (إيزابيلا) - بعد قضائهما الأثيم على غَرْناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس سنة (٨٩٧هـ / ١٤٩١م) - كَشْف طريق آخر للهند بعيداً عن ديار العرب المسلمين ونفوذهم، رغم اعتماده على ما قدمه المسلمون للبشرية من خبرة علمية وعملية في هذا المجال، لا سيما إثباتهم كروية الأرض ورسمهم خرائطها الجغرافية الهادية، ووضعهم الآلات الفلكية الدّالّة.

فاستجاب الملك الإسبنيولي لهذه الفكرة، ومكّنه من القيام بأربع رحلات، أولها سنة (٨٩٧هـ / ١٤٩٢م)، وآخرها سنة (٩٠٧هـ / ١٥٠٢م). وأطلق (كُوْلُوْمْبُس) على تلك الديار اسم: (الهند الغربية) [٦١] ظاناً أنه وصل إلى الهند من طرفها الآخر[٦٢]، ومن هنا جاءت تسمية سكان أمريكا الأصليين بالهنود الحمر، وهو خطأ صارخ [٦٣].

---

(٥٩) وقد سماه المؤرخ أحمد بن خالد الناصري السَّلاوي (ت ١٣١٥هـ) في كتابه الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٤ / ١٠٧: (كُلُنب) بضم الكاف واللام. وهو من اختلاف النطق في الأسماء الإفرنجية.

(٦٠) التدخين وأثره على الصحة للدكتور محمد علي البار ٦، والتدخين وسَرَطان الرئة ١١.

(٦١) ثم عُرفت بعد بأمريكا، تحقيقاً لرغبة الإيطالي (أميركو فسْبوتشي) - المتوفى سنة (٩١٨هـ / ١٥١٢م)، أي بعد وفاة (كُوْلُوْمْبُس) ببضع سنين - الذي اقترح تسمية تلك الديار باسمه بعد أن أثبت من خلال رحلاته المتعددة إليها أنها قارة جديدة لا تمت إلى الهند بصلة.

دور العرب في اكتشاف العالم الجديد للدكتور فهمي توفيق مقبل ٦٥ - ٦٦.

وقد سمى الناصري في كتابه الاستقصا ٤/١٠٧ تلك الديار: (ماركان)، وهو من اختلاف النطق.

(٦٢) وأشير في هذا المقام إلى أن المسلمين (عرباً وعَجَماً) ومن قبلهم الفينيقيون وغيرهم من أهل آسيا عرفوا تلك الديار المسماة بأمريكا قبل أن يبصر (كُوْلُوْمْبُس) النور بزمن سحيق، دلت على ذلك الآثار، وشهد به عدد من العلماء الأمريكيين وغيرهم.

دور العرب في اكتشاف العالم الجديد ٢٧ - ٣٣، ٥٦ - ٦٢، والعرب قبل كُوْلُوْمْبُس للطف الله قاري٤١ - ٤٤.

(٦٣) دور العرب في اكتشاف العالم الجديد ٧، ٢٧، ٦٤، ٦٨ - ٧٠، ٧٧، ٨٨، ٩٤، ٩٩.

وقد نزل (كُولُومبُس) ورجاله عدة نواح في أمريكا الوسطى، كجزر الباهاما (سان سلفادور)، والدومينيكان، وكوبا، وجزيرة تُباجو (تُباكو)[٦٤] الواقعة في الشمال الشرقي من فَنزويلا، وسائر جزر الأنتيل الكبرى والصغرى. ورأوا أهل تلك النواحي الذين سموهم بالهنود الحمر، يستعملون ذاك النبات تدخيناً ومضغاً ونَشُوقا، ويزعمون أنه نافع للصحة وممتع للنفس.

فحمله بعض هؤلاء الرحالة إلى إسبانيا، ويقال: إنه ورد إليها بعد ذلك على يد طبيب بعثه الملك الإسباني (فيليب الثاني) في رحلة استطلاعية إلى المكسيك سنة (٩٦٨هـ / ١٥٦٠م). وربما جُمع بين القولين بأن الطبيب المذكور روّجها ورغب فيها فيما كتبه عن تاريخ تلك البلاد، مع نشره لبذورها، حتى عرفت في إسبانيا والبرتغال أكثر من ذي قبل.

ويبدو أن موطن هذه العشبة الأول كان في الناحية الغربية من أمريكا الوسطى كالمكسيك وسان سلفادور، بل ذُكر أن استعمالها في المكسيك ضارب في القدم، يرجع إلى نحو ألفي سنة وخمس مئة سنة خلت، وكانوا يتعاطونه في احتفالاتهم الدينية.

وقد عُرفت تلك العشبة في أوروبا بعد وصولها إليها باسم إحدى الجزر الأمريكية السابقة، وهي تُباجو (تُباكو)، ولعلها الموضع الذي حمل منه التَّبْغ إلى أوروبا أو نحو ذلك[٦٥].

(ب) انتشاره في أوروبا:

تقدم أن الإسبان هم أول من عرف التَّبْغ في أوروبا، فقد ظنوه علاجاً عجيباً لكثير من الأمراض، لذا عملوا على زراعته ونشره، ثم اقتبسه منهم البرتغاليون.

---

(٦٤) تؤلف هذه الجزيرة مع جزيرة ترينيداد المجاورة لها دولة تسمى: ترينيداد وتُباكو.
.Grand larousse Universel 14/10263

(٦٥) تنظر المعلومات المذكورة في هذه الفقرة والفقرات الثلاث التي قبلها في المصادر التالية: إعلان الحجة ٤٩ – ٥١، ورسالة في الشاي والقَهْوة والدُّخَان ٣٢، وأدبيات الشاي والقَهْوة والدُّخَان ٧، وعمدة المحتاج (مادة: التَّبْغ) ٤ / ٤٥، ومحيط المحيط (مادة: تبغ) ٦٨، والتدخين وأثره على الصحة ٦، ٧، والتدخين وسَرَطان الرئة ١١ –١٢، ١٣، والتدخين وأمراض الفم ٧، والتدخين بين المؤيدين والمعارضين ٩ – ١٠، ١٢، والتدخين هاجس العصر ١٣ – ١٤، ١٦، والتدخين (دراسة علمية هادفة) ١٣، والتدخين بين الطب والدين للدكتور موسى توفيق الأقطم ١ – ٢، والطب الوقائي بين العلم والدين ٢٧٤، وروائع الطب الإسلامي ٣ / ٨٧، ومشكلة التدخين والحل ١٠، والسيجارة مقبرة المدخنين ١٥ – ١٧، والحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ١ / ٢٤٦.

ثم عرفت بريطانيا هذه العشبة، واحتفلت بها [٦٦]. وكان دخولها إليها بواسطة بعض كبار رجالات مستعمراتها في أمريكا الشمالية، الذين امتلكوا مزارع واسعة للتَّبْغ في ولاية فرجينيا.

وقد أُعجب به سفير فرنسا في البرتغال (جان نِيكوت) [٦٧]، إذ قام بزراعته في حديقته، ونوّه بفوائده، وبعث سنة (٩٦٨هـ / ١٥٦١م) بشيء منه إلى ملكة فرنسا (ماري دي مديسيس) كي تعالج به صداعها المزمن بطريقة السَّعوط ؛ لذا عرف التَّبْغ في فرنسا بأعشاب الملكة، كما عرف فيها بالأعشاب المقدسة، وكذلك بأعشاب النِّيْكُوتين نسبة إلى السفير المذكور[٦٨].

وعملت الدول الأربع المذكورة (إسبانيا، والبرتغال، وبريطانيا، وفرنسا) على نشر هذه العشبة في مستعمراتها أيضا، حتى إن البرتغاليين حملوها في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) إلى اليابان، ولم يمض القرن المذكور حتى كانت معروفة في كل أرجاء أوروبا، ومما ساعد على هذا الانتشار الكبير رغبة كثير من الملوك والقسيسين والأطباء فيها.

وقد أرخ الإمام محمد مُرْتَضَى الزَّبيدي لظهور التَّبْغ وانتشاره في أوروبا فقال: «وأول ما ظهر خبرها في بلاد الإفرنج في أواخر القرن العاشر، فوَلِعوا بها، ونبّهوا على منافعها»[٦٩].

---

(٦٦) وإلى هذا الاحتفال ألمع الأستاذ الدكتور محمد حجّي في كتابه الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ٢٤٦/١ بقوله: «وربما كان الإنجليز أول من شربوا دُخَان التَّبْغ على نطاق واسع، بعد أن جلبوه من أمريكا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وتفننوا في صنعه».

(٦٧) يكتب هذا الاسم بالفرنسية على الصورة التالية: (Jean Nicot) ، لكن الحرف الأخير لا يظهر في النطق عندهم.

(٦٨) وفي نحو هذه القصة يقول الرَّشِيدي في عمدة المحتاج ٤٦/٤: «وكان دخوله – (يعني الدُّخَان) – فرانسا في زمن هنري الرابع على يد قُنْصُله بالبرتغال المسمى (نِيْقُوت)، وذلك هو منشأ تسميته عندهم نِيْقُوسيان، فعند عود هذا القُنْصُل لفرانسا حمل معه نَشُوقه للملكة مارية، ومن ذلك سُمي بحشيشة الملكة... ومن ذلك أيضاً نشأت تسميته بحشيشة القُنْصُل، غير أنه في ذلك الزمن لم يكن استعماله منتشراً».

(٦٩) هدية الإخوان ١٢٠.

ولم ينتشر التَّبْغ على هيئة لفائف (سجائر) إلا في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، وكان قبل ذلك منتشراً بطريقة السَّعوط والمضغ، ثم بالتدخين لكن بوسائل أخرى كالغَلْيون والسِّيْجار [٧٠]، قال العلامة محمد راغب الطبّاخ في حوادث سنة (١٢٧٢هـ) من كتابه إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء [٧١]: «كان الناس يشربون الدُّخَان المعروف بالتُّتُن بواسطة ... الغَلْيون... ففي هذه السنة بطل ذلك، وصاروا يمتصون ذلك بوضع التُّتُن في ورقة صغيرة رقيقة، يلفون فيها التُّتُن، وهي التي تدعى بالسِّيكارة إلى يومنا هذا».

وقد أُغرم بتلك اللفائف الروس ثم الفرنسيون ثم الإنجليز، ثم عَمَّ الفساد وطَم.

وفي أوائل القرن الرابع عشر الهجري (أواخر القرن التاسع عشر الميلادي) شرعت المصانع الآلية للفائف في أمريكا وبريطانيا بضخ دخائنها المسمومة، وسجائرها المحمومة، حتى عظم الخَطْب[٧٢].

ولم يشعر الأوروبيون بأضرار التَّبْغ إلا بعد أن تمكن في نفوسهم واستحوذ عليها. وقد عمل بعض ملوكهم وحكوماتهم وباباواتهم في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) وما بعده على حَظْره والتنفير منه والمعاقبة عليه، لكن منعهم له لم يدم، لا سيما عندما انتعشت خزائنهم بالضرائب المغرية المفروضة على تجارة التَّبْغ [٧٣]، قال الرَّشِيدي: «ولم يكن في الابتداء معتبراً إلا نباتاً ذا خواص دوائية، وأما استعمال مسحوقه نَشُوقاً - أي إدخاله في الخياشيم - فلم ينتشر إلا بعد حمله للأوربا بزمن ما، وكانوا يعتبرون ذلك

---

(٧٠) التدخين وأثره على الصحة ٧، والتدخين وسَرَطان الرئة ١٣.

(٧١) ٣ / ٣٥٥.

(٧٢) تنظر المعلومات المذكورة عن انتشار الدُّخَان عند الأوروبيين في المصادر التالية: إعلان الحجة ٥١، وأدبيات الشاي والقَهْوة والدُّخَان ٧، والتدخين وأثره على الصحة ٦ - ٨، والتدخين وسَرَطان الرئة ١٢ - ١٥، والتدخين وأمراض الفم ٨، والتدخين بين المؤيدين والمعارضين ١٠ - ١١، والتدخين هاجس العصر ١٦ - ١٧، والتدخين (دراسة علمية هادفة) ١٤، وروائع الطب الإسلامي ٣ / ٨٧، والطب الوقائي بين العلم والدين ٢٧٥، والسيجارة مقبرة المدخنين ١٧ - ١٨، Grand larousse Universel 14/9997.

وتنظر التعليقات الحسان على تحقيق البرهان في شأن الدُّخَان لمشهور بن حسن آل سليمان ١٠٠ - ١٠٢.

(٧٣) التجارة الخاسرة: اقتصاديات التَّبْغ والتدخين للدكتور محمد علي البار ٢٣ - ٢٥، والتدخين هاجس العصر ١٧، والتدخين (دراسة علمية هادفة) ١٥ - ١٧، والتعليقات الحسان على تحقيق البرهان ٤٦.

الاستعمال بدعة خطرة، وكان... ملك إنكلتيرة في سنة ١٦٠٤، وأوربين الثامن أحد البابات رؤساء ديانة المسيحيين منتصبين لمضادّة من يتعاطى التَّبْغ بأي كيفية كانت، ومشى على هذا المنع معظم ملوك الأوربا، بل والفرس والترك، ويجتهد تجار الأوربيين في إدخاله عندهم، وهم يبالغون في الزجر حتى هدّدوا بقطع أنف من يتعاطاه، بل بقتله، وهذا كله لم ينفر التجار عن إدخاله في المتجر، ولم يمتنع الأشخاص الذين ابتدأ عندهم الاستشعار بلذته عن استعماله تدخيناً أو انتشاقا، وأول من لاحظ المنافع التي تحصل منه للمملكة حاكم فرانسا، فسامح بإدخاله بلاده، ولكن وضع عليه جُمْرُكاً - (مَكْسا) - عظيما، بحيث صار فرعاً لمدخول كبير... ولما سومح بدخوله فرانسا انتشر استعماله سريعا، ورأى باقي ملوك أوربا النفع[٧٤] الذي يمكن تحصيله منه فسامحوا أيضاً في إدخاله عندهم، فمكث زمناً طويلاً معدوداً من الفروع المهمة في المتجر بين الأميرقة الجنوبية والأوربا، ولكن اجتهد

(٧٤) هو نفع متوهم لاحقيقة له، وفيه يقول الدكتور محمد علي البار في رسالته: التجارة الخاسرة ٢٨ - ٣٠: «تعتبر الولايات المتحدة - (الأمريكية) - أكبر دولة مصنعة للسجائر في العالم، كما أنها تعتبر من أكبر أسواق التَّبْغ... وتكسب الدولة (١٤) ألف مليون ضرائب على السجائر والتَّبْغ، كما تبلغ أرباح شركات السجائر والتَّبْغ (٦٥٦٤) ألف مليون دولار - صافي الأرباح لعام ١٩٨٦ -، وإذا أضفنا إلى ذلك ما يكسبه المزارعون والمعلنون، فإن هذه المكاسب المجتمعة تُقدَّر بحوالي (٢٥) ألف مليون دولار.

أما الخسائر فتتمثل في الآتي: (٣٠) ألف مليون دولار ثمن التَّبْغ المستهلك الذي يحرق في الهواء، (٢١,١) ألف مليون دولار خسارة بسبب الوفاة المبكرة، (٩,٣) ألف مليون دولار خسارة بسبب التغيب عن العمل، (٢٣,٣) ألف مليون دولار ثمن الرعاية الصحية لأمراض ناتجة عن التدخين، بالإضافة إلى الخسائر الناتجة عن الحرائق... ويضاف إلى ذلك كله إصابات وأمراض غير المدخنين (التدخين السلبي)، ولذا يصبح الرقم مئة ألف مليون دولار.

وما هو أخطر وأبشع من ذلك كله، هو أن يتوفى (٣٥٠,٠٠٠) أمريكي كل عام بسبب أمراض ناتجة عن التدخين، بالإضافة إلى (٥٠,٠٠٠) شخص يُتوفَون بسبب ما يسمى: التدخين بالإكراه (أو التدخين السلبي)... هذه الأرقام من كتاب المحامي لاري وايت: (تُجار الموت)، الصادر عام ١٩٨٨، والذي قدم له إيفريت كوب وزير الصحة الأمريكي».

ففي هذا التقرير بلاغ لمن اعتبر، وذكرى لمن ادّكر.

وأُضيف إلى ما سبق أعداد الوَفَيَات في العالم التي يتسبب بها التدخين، ففي مقدمة رسالة (احذر التدخين): «يتسبب التدخين بوفاة (٣٠٥) مليون شخص كل عام، أي حوالي (١٠,٠٠٠) وفاة يوميا، ليصبح التدخين سبباً للوفيات أكثر مما يتسبب به فيروس الإيدز والسُّل وَوَفَيَات الأطفال وحوادث السير والانتحار والقتل مجتمعة معا. ووفقاً لتقديرات منظمة الصحة العالمية فإن ٢٠-٣٠٪ من الوَفَيَات على مستوى العالم تحدث نتيجة أمراض ترتبط أو يتسبب بها التدخين».

الأوربيون حالاً في استنباته بالأماكن التي تناسبه، فانتشر استنباته في جميع الأقاليم، وصار موجوداً أيضاً في غير الأوربا»[٧٥].

(جـ) انتشاره في البلاد الإسلامية:

عندما شعر الأوروبيون بشدة خطر التَّبْغ وعظيم ضرره، حاول بعضهم اجتثاثه من مجتمعهم لكن دون طائل، وعمل بعضهم على نقله إلى العالم الإسلامي ليوقعوه في حبائله المهلكة من جهة، وليحصِّلوا أرباحه الوفيرة من جهة أخرى.

قال الإمام برهان الدين إبراهيم بن إبراهيم اللَّقَاني المصري المالكي - صاحب الجوهرة وشروحها - في رسالته نصيحة الإخوان باجتناب الدُّخَان: «أول من جلبه - يعني الدُّخَان - إلى البر الرومي - (تركيا) - الجيل المسمى بالإنكليز من النصارى، وأول من أحدثه بأرض المغرب رجل يهودي يزعم أنه حكيم، له فيه نظم ونثر، وذكر له منافع عدة، وزاد عليه أرباب البطالة كثيرا، وأول من أخرجه ببلاد السودان المجوس»[٧٦]. وقال فيها أيضا: «وقد أخبرني بعض المخالطين لنصارى الإنكليز أنهم ما جلبوه لبلاد الإسلام إلا بعد أن أجمع أطباؤهم على منعهم من الملازمة عليه، وأن لا يستعملوا منه إلا القدر الذي لا ضرر فيه... وأمروا ببيعه للمسلمين»[٧٧].

كما أشار الإمام محمد مُرْتَضَى الزَّبيدي إلى مصدر التَّبْغ الذي انتشر في بلاد المسلمين، وهو الغرب الأوروبي، فقال: «وأول ما ظهر خبرها في بلاد الإفرنج في أواخر القرن العاشر، فوَلِعوا بها، ونبهوا على منافعها، واتصل ذلك إلى ما جاورها من جزائر

---

(٧٥) عمدة المحتاج ٤ / ٤٥ - ٤٦.

(٧٦) نقلاً عن إعلان الحجة ١٨٨، ومقالة: الدُّخَان ودخوله إلى الشرق ٦ / ٤٦٢، ونحوه في فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك للفقيه المالكي العلامة عِلِيْش ١ / ٨٣.

وينظر مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى لمفتي الحنابلة بدمشق مصطفى بن سعد السُّيُوطي الرُّحيباني ٦ / ٢١٨.

وكلمة (المجوس) المذكورة بيّن المراد منها أمين معلوف في مقالته المشار إليها ٦ / ٤٦٣ بقوله: «والمجوس يريد بهم غير المسلمين من السود، لا مجوس الهند المعروفين في أيامنا بالبارسيين أو الفارسيين».

(٧٧) نقلاً عن إعلان الحجة ٤١ - ٤٢، ونحوه في فتح العلي المالك ١ / ٨٦.

المغرب، وأطراف بلاد الهند مما يلي البحر المِلْح، ثم برز شُعاعها إلى بلاد العرب... ثم استزرعوها بأرض الترك والعجم»[٧٨].

وأما زمن ظهوره في ديار الإسلام فهو رأس الألف من الهجرة[٧٩] (أواخر القرن السادس عشر الميلادي).

ولعل أول بروزه كان في بلدة تُنْبُكْت[٨٠] المسلمة، وهي من إقليم التَّكْرور في السودان الغربي، قال ابن الحاج في حاشية له: «وأول ما ظهرت بتُنْبُكْتو في أوائل القرن الحادي عشر، ولما وفد أهل السودان للمغرب على السلطان أحمد المنصور بالفِيل، قدموا بها يشربونها ويزعمون أن فيها منافع، فشاعت عنهم في دَرْعَة ومَرّاكُش وغيرِهما من بقاع المغرب»[٨١].

وجاء في سؤال عن حكم التَّبْغ وَجَّهه أهل تُنْبُكت لعالمهم القاضي محمد بن أحمد بن عبد الرحمن التُّنْبُكْتي، تحديد السنة التي ابتلوا فيها بظهور هذه الآفة، وصورته: «في السنة الخامسة بعد الألف ظهرت أوراق شجرة في بلدنا... تسمى طابغا...»[٨٢].

لكن أحمد بن خالد الناصري ذكر أن أهل السودان حملوا هذه العشبة إلى مَرَّاكُش سنة إحدى وألف، فقال: «وفي سنة إحدى وألف أُتي بالفِيلَة من بلاد السودان إلى المنصور، وكان يوم دخولها لمَرّاكُش يوماً مشهودا... ثم حملت - (يعني الفِيلَة) - إلى فاس... سنة سبع وألف... قال بعضهم: وبسبب دخول هذه الفِيلَة إلى المغرب ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة بتابغ، لأن أهل السودان الذين قدموا بالفِيلَة يسوسونها قدموا بها معهم يشربونها

(٧٨) هدية الإخوان ١٢٠.

(٧٩) إعلان الحجة ١٢، ٣٦، ١١٥، ١٦٢، ١٦٩، وخلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام للسيِّد أحمد بن زَيْني دَحْلان ١٩٣، وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٣ / ٢٠٣، وأدبيات الشاي والقَهْوة والدُّخَان ٨، وروائع الطب الإسلامي ٣ / ٨٧.

وينظر كتاب خواطر دينية للعلامة عبد الله بن محمد بن الصِّدِّيق ١٢٦.

(٨٠) تقع اليوم في دولة مالي.

(٨١) نقلاً عن إعلان الحجة ١٦١.

(٨٢) المصدر السابق ١٧٣ نقلاً عن عمدة المريد شرح جوهرة التوحيد للَّقَاني. وينظر الصلح بين الإخوان ١٩ أ، ٢٠أ.

ويـزعـمون أن فيـها منـافـع، فشـاعت منـهم في بـلاد دَرْعة ومَرّاكُش وغيرهما من بقاع المغرب»[٨٣].

وقد اعترض الأستاذ الدكتور محمد حجّي على التاريخ الذي أورده الناصري وغيرُه فـقـال: «دخلت عادة تدخين التَّبْغ إلى إفريقيا السوداء الوثنية عن طريق الأوروبيين، ووصلت إلى تُمْبُكْتو في مستهل القرن الحادي عشر (أواخر السادس عشر)، ومن ثم حملها السودانيون الذين رافقوا الفِيَلة إلى مَرّاكُش عامي (١٠٠٥ - ١٠٠٦ / ١٥٩٧ - ١٥٩٨)، ثم دخلوا بها إلى فاس مع الفِيَلة أيضاً عام (١٠٠٧ / ١٥٩٩)»[٨٤]. وعلق في الحاشية بقوله: «اعتمدنا هذا التاريخ لأنه هو الذي عند أ. البُوْسَعِيدي في بذل المناصحة، وأخبر به عن مشاهدة، لا ما ذكره م. الإفراني في النزهة... وتبعه أ. الناصري في الاستقصا... من أن ذلك كان عام (١٠٠١ / ٩٢ - ١٥٩٣)»[٨٥].

ومما يقوي اعتراض الدكتور حجّي قول العلامة أبي حامد العربي بن الهاشمي الزَّرْهُوني العَزُّوزي ثم الفاسي: «ومما تساهل فيه الناس في هذا الزمان، وأظهروه في مجالسهم حتى الصبيان، مسألة تباغا المتداولة بين أربابها والمستعملين لها منذ أزمان، من عام خمسة أو ستة أو سبعة بعد الألف إلى وقتنا هذا»[٨٦].

وعوداً على ما ذكره ابن الحاج وغيره من ظهور التَّبْغ في المغرب على يد أهل تُنْبُكْت، فإنه مُعَارَضٌ في ظاهره بما تقدم عن اللَّقَاني من أنَّ أول من أحدثه بأرض المغرب يهودي.

ويمكن الجمع بين القولين بأن اليهودي هو أول من دعا إليه وزخرف القول فيه على لسان الحكماء، في الزمن الذي قدم فيه أهل تُنْبُكْت على ملك المغرب أبي العباس أحمد المنصور بالله السعدي الملقب بالذهبي وهم يشربونه، مما شجع المغاربة على الوقوع في أشراكه، قال العلامة السيد محمد بن جعفر الكَتّاني: «وقد ذكروا أن أول من أظهر

(٨٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٥ / ١٢٦. وينظر النوازل ٣ / ٢٠٨.

(٨٤) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ١ / ٢٤٦.

(٨٥) المصدر السابق.

(٨٦) نقلاً عن إعلان الحجة ١٤٩.

القول فيها يهودي ظهر بالمغرب الأقصى، زمن قدوم أهل السودان على السلطان أبي العباس المنصور الذهبي بالفيل، وقدموا بهذه العشبة يشربونها، وادعى أنه حكيم، وأنه ظهر له من منافعها شيء كثير، وأبرز في مدحها وذكر منافعها شعراً وكلاماً منثورا، وكتب ذلك عنه أرباب البطالات المولعون بها، وزادوا من منافعها ما زينه لهم الشيطان، مما هو إفك وزور وبهتان، وصاروا يشيعون ذلك في المحافل، ويذكرونه بين يدي العلماء والأماثل، حتى سارت بها الركبان، ونُقل إلى مصر وغيرها من البلدان، وغروا به كثيراً من الناس»[٨٧].

وقد باشر الأوروبيون بعد بُرْهة من ذاك التاريخ ضَخّ التَّبْغ في المغرب، كما فعلوا من قبل في السودان الغربي، قال الدكتور حِجّي: «لم تمض غير بضع سنوات على ظهور التَّبْغ في المغرب، حتى أصبحت له أسواق رائجة، وكثر التجار الذين يبيعونه... تحمله إليهم من السودان القوافل المنتظمة بين تُمْبُكْتو ومَرّاكُش، وتجلبه إليهم السفن الإنجليزية والهولاندية المترددة على مراسي: سَلاَ وآسفي وأكدير»[٨٨].

وأما ظهور التَّبْغ في الحجاز واليمن ونجد ومصر فقد تأخر بضع سنين عن ظهوره في المغرب، قال المُحبي: «وظهور التُّنْباك - المسمى بالتَّبْغ وبالتُّتُن - بجهة العَرَب[٨٩] والحجاز واليمن وحضرموت كان في سنة اثنتي عشرة وألف كما وجدته بخط بعض المكيين»[٩٠].

وقال محمد بن عبد المعطي الإسحاقي المَنوفي عند حديثه عن ولاية علي باشا على مصر من قبل الدولة العثمانية سَنَوات (١٠١٠ - ١٠١٢هـ / ١٦٠١ - ١٦٠٣م): «وفي زمنه ظهر الدُّخَان المضر بالأبدان، اليابس الطباع، الذي لا شيء فيه من الانتفاع»[٩١].

وقال الإمام إبراهيم اللَّقَاني في نصيحة الإخوان: «وقد حدث في آخر القرن العاشر

(٨٧) المصدر السابق ١٨٨.

(٨٨) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ١ / ٢٤٧.

(٨٩) في مطبوعة كتاب المُحبي (الغَرْب) بدل: (العَرَب). ويبدو أن الصواب ما أثبته، لأن السياق لا يتعدى شبه الجزيرة العربية، ولأن ظهور التَّبْغ في المغرب كان قبل ظهوره في بلاد العرب الأولى كما تقدم، وعلى هذا فإن المراد بجهة العَرَب نجد وما صاقبها. والله أعلم.

(٩٠) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٢ / ٨٠.

(٩١) لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ١٥٩.

شيء يقال له الدُّخَان... وأول من جلبه إلى البر الرومي الجيل المسمى بالإنكليز من النصارى، وأول من أحدثه بأرض المغرب رجل يهودي... وأول من أخرجه ببلاد السودان المجوس، ثم جُلب إلى مصر والحجاز واليمن والهند وغالب أقطار بلاد الإسلام، وعم به البلوى. ففي أوائل شروعه بمصر دخل به رجل من تافِيلات من بلاد المغرب، يقال له أحمد بن عبد الله الخارجي المشهور بسفك الدماء بغير حق وإهانة أهل بيت الرسول ﷺ من أشراف ملوك المغرب، وكان على العامة يزعم أنه من العارفين وأهل السلوك، وهو مغرور مخدوع»[٩٢].

والخارجي المذكور هو ابن أبي مَحَلِّي، قال الدكتور حِجِّي: «وفي غمرة الفتن التي أعقبت وفاة المنصور تَجَدّد رواج التَّبْغ، وانتشر أكثر مما كان وبخاصة في الصحراء، ومنها حَمَله - أحمد بن أبي مَحَلِّي - إلى مصر في رحلته الحجازية الثانية عامي (١٠١٣ - ١٠١٤هـ / ١٦٠٤ - ١٦٠٥م)، فدخل التَّبْغ بذلك لأول مرة إلى بلاد النيل[٩٣]، ومنها انتشر في الشام والجزيرة العربية»[٩٤].

وأما زمن ظهور التَّبْغ في إستنبول فإنه قريب من زمن ظهوره في الحجاز وغيره[٩٥]، وذلك في عهد السلطان أحمد خان الأول ابن السلطان محمد خان الثالث ابن السلطان مراد خان الثالث العثماني الذي كانت ولايته بين سنتي (١٠١٢ - ١٠٢٦هـ / ١٦٠٣ - ١٦١٧م)[٩٦].

وفي سنة (١٠١٥هـ / ١٦٠٦م) عُرف التَّبْغ في دمشق، قال العلامة علاء الدين

(٩٢) نقلاً عن الدُّخَان ودخوله إلى الشرق ٦ / ٤٦٢. وينظر الصلح بين الإخوان ١٩ أ، وكتاب الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ١ / ٢٥٥.

(٩٣) تقدم عن صاحب لطائف أخبار الأُول أن التَّبْغ دخل مصر قبل ذلك، وكلام اللقاني السابق يُشعر به. لذا فإن عبارة الدكتور حِجِّي هذه ليست سديدة.

(٩٤) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ١ / ٢٤٧.

(٩٥) السيجارة مقبرة المدخنين ١٩.

(٩٦) إعلان الحجة ١٦٣. لكن ذكر في التعليقات الحسان على تحقيق البرهان ٨٧ أن السفن الأوروبية أدخلت التَّبْغ إلى الآستانة سنة (١٠١٠).

محمد بن علي الحَصْكَفي مفتي الحنفية بدمشق: «قال شيخنا النجم – (يعني الغَزِّي):– والتُّتُن الذي حدث، وكان حدوثه بدمشق في سنة خمسة عشر بعد الألف...»[٩٧].

(د) حَظْره في الديار الإسلامية وزَجْر الناس عنه:

لم يتوان العلماء والسلاطين والولاة عن محاربة هذه الآفة، ومعاقبة متعاطيها مذ يوم ذُرورها.

ففي قَصَبَة السلطنة إستنبول بادر السلطان العثماني أحمد خان الأول إلى حَظْرها في جميع أنحاء مملكته عند ظهورها، وتابعه عليه غيره من السلاطين[٩٨].

قال العلامة محمد بن جعفر الكَتّاني: «ولما ظهرت بإسلامبول، وذلك في أيام السلطان... الغازي أحمد خان الأول ابن السلطان الغازي محمد خان الثالث... وكان من أعظم ملوك آل عثمان قدرا... وكانت بيعته بعد وفاة أبيه سنة اثنتي عشرة وألف... سأل عنها المفتي الأعظم بها إذ ذاك مفتي السلطنة ورئيس العلماء شيخ الإسلام أبا السعود المولى محمد... التَّبْريزي الأصل القُسْطَنْطِيْني المولد والمنشأ والوفاة فأفتى بتحريمها... وحين بلغت فتواه هذه السلطان المذكور، وبلغته أيضاً فتاوى أخر وبعض الرسائل المؤلفة وقتئذ بالمنع، أمر – رحمه الله – بالمنع من تعاطيها، وزجر الناس عنها في جميع بلاده وأراضي حكومته من مصر وغيرها.

ثم تابعه على ذلك بالتأكيدات البليغة ولده السلطان الغازي مراد الرابع [٩٩]، وكان من أعظم سلاطين آل عثمان مقدارا... وكانت بيعته سنة اثنتين وثلاثين وألف... وقد ترجمه في خلاصة الأثر، وذكر ما وقع في عهده من الفتوحات، وما وقع من الحوادث في أيام

(٩٧) الدر المختار على متن تنوير الأبصار – طبع على حاشية رد المحتار لابن عابدين – ٥ / ٤٥٤.

وينظر الصلح بين الإخوان ١٩ ب. وقد قارب المُحِبي في خلاصة الأثر ٢ / ٨٠ بين ظهور التَّبْغ في الشام وظهوره في الحجاز واليمن ونحوهما من غير تحديد دقيق، فقال عقب كلامه السابق: «وأما ظهوره في بلادنا الشامية فلا أتيقنه، لكنه قريب من هذا التاريخ».

(٩٨) ينظر ما تقدم نقله عن عمدة المحتاج ١٥.

(٩٩) ينظر كتاب التدخين هاجس العصر ١٧.

سلطنته قائلا: ومنها تبطيله القَهَوات في جميع ممالكه، والمنع من شرب التَّبْغ بالتأكيدات البليغة، وله في ذلك التحريض الذي ما وقع في عهد ملك أبدا»[١٠٠].

كما نوّه العلامة محمد بن الطيب القادري بأعمال السلطان مراد الرابع المذكور فقال: «ومن عدله أنه أمر بقطع الخَمْر والقَهْوة والدُّخَان من إستنبول، وأرسل بذلك إلى حلب والشام ومصر، وكل من ظهر عليه لا شافع فيه كائناً من كان. كل هذا أخبر به في رسالة سيدي عبد القادر الفاسي عن بعض أصحاب الدين والصدق ممن كتب به للمغرب»[١٠١].

وقد امتثل الناس أمر السلطان مراد الرابع في هذا الشأن طوال مدته، لأنه كان حازماً فيه كل الحزم، ففي كتاب إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: «قال مصطفى نعيما في حوادث هذه السنة (سنة ١٠٤٣): وقد كان درويش باشا ونصوح باشا في زمن سلطنة السلطان أحمد الذي تولى السلطنة سنة (١٠١٢) قد ناهضا فكرة تناول الدُّخَان واستعمال القَهْوة، وسدا هذا الباب، إلا أن ذلك لم يطل كثيرا، وعاد الناس إلى ما كانوا عليه.

وفي هذه السنة حصل حريق عظيم في قُسْطَنْطِيْنِيَة، وعلى أثره... صدر أمر السلطان مراد خان بإغلاق جميع الأماكن التي يُتعاطى فيها شرب الدُّخَان والقَهْوة على شرط أن لا تفتح فيما بعد مطلقا، وأرسل بهذا الأمر إلى جميع الممالك العثمانية، فعطلت فيها القَهاوي أيضا، وأشرفت على الخراب مع تمادي الزمن، وبقي ذلك إلى زمن السلطان محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان، فعاد أرباب الفساد في أوائل سلطنته إلى ما كانوا عليه، وشمل ذلك جميع الممالك العثمانية إلا دار السلطنة، فإن أماكن القَهْوة بقيت مغلقة فيها.

وبعد أن أغلقت أماكن القَهْوة في زمن السلطان مراد أصدر أوامره بمنع شرب الدُّخَان... وأن من يتناوله يقتل سياسة، وأخذ العلماء والوعاظ يعظون الناس ويردعونهم عن تعاطيه... وقد اشتهر أن السلطان مراد قتل كثيراً من الناس الذين كانوا يتعاطون شرب الدُّخَان... أ.هـ»[١٠٢].

---

(١٠٠) إعلان الحجة ١٦٣ - ١٦٤. وما نقله عن خلاصة الأثر للمُحبي موجود فيه بلفظه ٣٣٩/٤. وينظر فتح العلي المالك ١ / ٨٤، وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٣ / ٢٠٣، والتعليقات الحسان على تحقيق البرهان ٤٦-٤٧.

(١٠١) نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ١ / ٣٣٢.

(١٠٢) ٣ / ٢٠٣ - ٢٠٤.

فهذا النص يدل أيضاً على أن حَظْر الدُّخَان استمر في زمن السلطان إبراهيم بن السلطان أحمد خان وأخي السلطان مراد الرابع، ويؤكده قول إبراهيم بك حليم مفتش أوقاف دَمَنْهُور: «ولد المشار إليه - (يعني السلطان إبراهيم) - سنة (١٠٢٤)، وجلس سنة (١٠٤٩)... أما الصدر الأعظم مصطفى باشا فإنه اهتم في اقتفاء أثر السلطان مراد في حزمه ضد الأشقياء... وفي سنة (١٠٥٠) تجددت المعاهدات... وفي هذا العام جاء السفراء... بالهدايا الكثيرة، وشدد الصدر الأعظم في منع المسكرات وشُرب الدُّخَان كلياً»[١٠٣].

وأشار أمين الفتوى في إستنبول العلامة المحقق محمد بن عبد الله العيني الشهير بفقهي في رسالته في حكم التُّتُن والقَهْوة[١٠٤] التي ألفها سنة (١١١٤هـ / ١٧٠٢م) إلى استمرار النهي عن استعمال الدُّخَان علناً في دار السلطنة (إستنبول).

كما عمل بعض ولاة الدولة العثمانية على زجر الناس عنه قبل ورود أمر السلطان إليهم، قال الإمام اللقاني في نصيحة الإخوان: «وقد تصدى محمد باشا الوزير الأعظم الآن - نصره الله تعالى - أيام ولايته بمصر للذب عنها، ومنع الناس من شربها، وقتل عليها بعض الناس، وأحرق منها شيئاً كثيرا، ثم تلاه محمد باشا... ثم تلاهما حضرة مولانا الوزير أحمد المولّى بمصر الآن، ولكن رأينا منه ليناً بعد إشهاره النداء بمنعها حال قدومه... ثم ورد أمر السلطان أحمد - نصره الله تعالى وأدام أيامه - بالمنع منها، وأشهر الوزير المذكور النداء بذلك، وأمر المنادي أن ينادي أن من تعاطاها يقتل مكانه، وانبرم الأمر على هذا - يعني المنع - ولله الحمد»[١٠٥].

ومن النواحي التي مُنع الدُّخَان فيها أيضاً مكة المكرمة وما يتبعها، قال مفتي مكة ومؤرخها أحمد بن زَيْني دَحْلان: «ومما كان في دولة مولانا الشريف مسعود - (يعني ابن سعيد بن سعد أمير مكة) - أنه مَنَع الناس من التظاهر بشرب الدُّخَان، فرُفع من القَهاوي والأسواق، وصار حاكمه يقبض على من يراه عنده في الأطواق... ومما كان من الحوادث

(١٠٣) التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ١٣٢.

(١٠٤) ٨٥ ب.

(١٠٥) نقلاً عن إعلان الحجة ١٦٣.

أيضاً في دولة الشريف مسعود أنه نادى على جميع الغرباء من جميع الأجناس بالتوجه إلى بلدانهم... وكان الأمر بذلك سنة تسع وأربعين ومئة وألف، وكذلك المنع من شرب التُّنْباك»[١٠٦].

كما حُظر الدُّخَان في نجد وتوابعها، قال المستشرق السويسري ثم البريطاني جوهان لودفيج بُوركهارت: «أما تدخين التَّبْغ فمن المعروف أن كثيراً من العلماء الأتراك قد ذكروا مراراً في كتاباتهم أنه عمل محرم... وكثير من العلماء في كل جزء من تركيا يمتنعون عن تدخينه على أساس ديني. وقد رغب الزعيم الوهابي - (يعني الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي) - أيضاً في أن يمنع تدخين النباتات المسكرة المستعملة كثيراً في الشرق»[١٠٧]. وقال الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن رسالة كتبها سنة ١٢١٨هـ (١٨٠٣م)، مبيناً ما فعله الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود في مكة المشرفة بعد دخوله إليها: »ثم رُفعت المُكُوس والرسوم، وكُسرت آلات التُّنْباك، ونُودي بتحريمه، وأُحرقت أماكن الحشاشين»[١٠٨].

وقد التزم بهذا الحَظْر بعض الأمراء الذين قدموا الطاعة لحكام نجد، كالشريف منصور بن ناصر أحد أبرز أمراء المِخْلاف السليماني في جنوب الجزيرة العربية، ففي كتاب نفح العُود في سيرة دولة الشريف حُمُود: «وأقبل منصور - (وذلك في أواخر سنة ١٢١٦هـ / ١٨٠٢م) - إلى صَبْيا وقد ظهرت عليه ستار الدعوة النجدية، وحث رعيته على العمل بما يعمل به أهل تلك الدعوة، ونادى بتحريم التُّنْباك، وتَزَيَّا جنده بما يَتَزَيَّا به أشبال تلك اللَّبْوَة، وبالغ في الزجر على مرتكب التُّنْباك، وكان هو من أعظم المستعملين له، وممن كان يعسر عليه مفارقته، فهجره هجر الغَزَال ظله، وفارقه مفارقة الميت أهله، وقال: قبيح بنا أن نؤدب على الشيء ونحن لا نتركه»[١٠٩].

---

(١٠٦) خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ١٩٣، ١٩٤.

(١٠٧) مواد لتاريخ الوهابيين ٢٥.

(١٠٨) الهدية السُّنِّيَّة: التحفة الوهابية النجدية لجميع إخواننا الموحدين من أهل الملة الحنيفية والطريقة المحمدية، (مجموعة خمس رسائل لكبار أئمة نجد وعلمائها) جمع وترتيب سليمان بن سَحْمان النجدي ٢٨.

(١٠٩) ١١٣.

وممن زجر عن الدُّخَان أيضاً شاه إيران عباس الأول[١١٠].

ولم يختلف الحال في أقصى المغرب عما كان عليه في المشرق، فقد سارع السلطان أبو العباس أحمد المنصور السعدي إلى منعها وإتلاف مادتها فور تحريم علماء بلده لها، وكذلك فعل غيره من سلاطين المغرب، قال السيد محمد بن جعفر الكَتّاني: «ولما ظهرت هذه العشبة بفاس والمغرب، أفتى بحرمتها علماؤها قاطبة... ورُفع الأمر إلى السلطان أبي العباس أحمد المنصور السعدي الملقب بالذهبي، فنفّذ الحكم بذلك، وأمر بحرقها، فجمعت وأحرقت بديوان فاس العليا على قدومه من مَرّاكُش، وضاع فيها مال عظيم[١١١].

ووقع في زماننا هذا أيضاً أن سلطان مغربنا مولاي الحسن بن محمد العلوي سأل عنها علماء فاس وقاضيها... فأفتوه كلهم أيضاً بتحريم بيعها وشرائها وتعاطيها، ووجوب حرقها... فأمضى فتواهم في ذلك، وأمر بحرقها في جميع إيالته المغربية، وبتأديب من وجدت بعد في يده أو يتعاطاها، فجمعت وأحرقت وضاعت فيها أموال عريضة جسيمة»[١١٢].

وفي مدينة فاس أيضاً قام أحد ولاة الحسبة من قبل السلطان محمد الحاج بن محمد بن أبي بكر اللَّمتوني الدَّلائي بمنع تعاطي الدُّخَان وبيعه، وذلك سنة ثمان وأربعين بعد الألف[١١٣].

هكذا أدى الملوك والسلاطين والولاة الأمانة من قبل[١١٤]، بمحاربتهم لهذا الضرر المدسوس، والشر الأُدْمُوس، متوجهين بهدي العلماء الناصحين، والأطباء العارفين. لكن استرخى بعدُ الزِّمام، وانتكس الحال حتى وصل إلى ما نحن فيه هذه الأيام:

فذاك زمان لعبنا به وهذا زمان بنا يلعبُ[١١٥]

---

(١١٠) التعليقات الحسان على تحقيق البرهان ٤٧. وينظر ما تقدم نقله عن عمدة المحتاج ١٥.

(١١١) ينظر النوازل ٣ / ٢٠٩، والحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ١ / ٢٤٧.

(١١٢) إعلان الحجة ١٦٢.

(١١٣) نشر المثاني ١ / ٣٧٦.

(١١٤) لكن بعضهم غالى في العقاب، وبالغ في إيقاع العذاب.

(١١٥) أنشده حافظ اليمن عبد الرزاق بن هَمّام الصَّنْعاني كما في وَفَيَات الأعيان لابن خَلِّكان ٣/٢١٧.

وختاما.. فهذه صفحات تاريخية مختصرة كشفت النقاب عن تاريخ استعمال التَّبْغ وتدخينه منذ الزمن القديم، وكيفية اغترار الأوروبيين به عندما جلبوه إلى بلادهم ونشروه فيها، ومدى خبث هؤلاء القوم في تزيينه للمسلمين لما شعروا بأضراره ووقعوا في أحابيله، ومسارعة أولي الأمر في ديار الإسلام إلى منعه والتحذير منه والمعاقبة عليه.

ومع أن هذا البحث يُعد بداية للحديث عن الدُّخَان، فإنه ينذر بالخطر، فكيف لو عُددت الأضرار، وأُظهرت الآثار، وعُرضت فتاوى أهل الأمصار؟!!

أجل، إن هذا البحث بداية، لكنه ينطق في مطلبه الأول بالحقيقة المرة التي فيها: الحرق والدُّخَان، والسم والإدمان، والسقم والسَّرَطان. وأما المطلب الآخر فإنه يقود إلى ما وراء بحر الظلمات، حيث مصدر تلك العشبة التي قُدمت لنا في مِرْجَل تحمله أَثَافِيّ الشر، فالحذر الحذر. والله المستعان، وعليه التُّكلان.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

* * * *

جَريدة المصادر والمراجع

١- احذر التدخين - رسالة أعدها قسم التثقيف الصحي بإدارة الرعاية الصحية الأولية في دائرة الصحة والخدمات الطبية بإمارة دبي، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

٢- أدبيات الشاي والقَهْوة والدُّخَان لمحمد طاهر بن عبد القادر الكردي الخطاط (ت١٤٠٠هـ)، إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.

٣- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري السَّلاوي (ت١٣١٥هـ)، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب بالدار البيضاء ١٩٥٤م (١٣٧٤هـ).

٤- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء لمحمد راغب بن محمود الطبّاخ الحلبي (ت١٣٧٠هـ)، بعناية محمد كمال، دار القلم العربي بحلب، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ.

٥- إعلان الحجة وإقامة البرهان على منع ما عَمّ وفشا من استعمال عشبة الدُّخَان لمحمد بن جعفر الكَتّاني (ت١٣٤٥هـ)، مكتبة الغزالي بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١١هـ /١٩٩٠م.

٦- تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبد الله السَّعْدي(ت ١٠٦٦هـ)، بعناية هُوداس ومشاركة تلميذه بنوه، المكتبة الأمريكية للدراسات الشرقية بباريس ١٩٨١م (١٤٠١هـ).

٧- التجارة الخاسرة ! اقتصاديات التَّبْغ والتدخين لمحمد علي البار، دار المنارة بجُدّة ومكة المكرمة، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٨- تحفة الإخوان في تحريم الدُّخَان لعبد القادر الراشِدي القُسَنْطيني (ت ١١٩٤هـ)، تحقيق عبد الله حمَادي، دار الغرب الإسلامي ببيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م (١٤١٨هـ).

٩- التحفة الحَليمية في تاريخ الدولة العلية لإبراهيم حليم باشا (ت بعد ١٣٢٢هـ) مطبعة ديوان عموم الأوقاف، الطبعة الأولى ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م.

١٠- تحقيق البرهان في شأن الدُّخَان الذي يشربه الناس الآن لمَرْعي بن يوسف الكَرْمي المقدسي (ت١٠٣٣هـ)، بعناية مشهور بن حسن آل سلمان، دار السلف بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

١١- التداوي بالأعشاب (بطريقة علمية تشمل الطب الحديث والقديم) لأمين رويحة (ت١٤٠٤هـ)، دار القلم ببيروت، الطبعة الرابعة ١٩٧٣م (١٣٩٣هـ).

١٢- التدخين بين الطب والدِّين لغازي عبد اللطيف موسى، المكتبة الإسلامية بعَمّان ودار ابن حزم ببيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

١٣- التدخين بين الطب والدِّين لموسى توفيق الأقطم، دار الصفوة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ /١٩٩٤م.

١٤- التدخين بين المؤيدين والمعارضين لهاني عَرموش، دار النفائس ببيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م.

١٥- التدخين (دراسة علمية هادفة) لعز الدين الدنشاري وسينوت حليم دُوس، دار المريخ بالرياض ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.

١٦- التدخين هاجس العصر لعبد الغني عرفة، دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

١٧- التدخين وأثره على الصحة لمحمد علي البار، الدار السعودية بجُدّة، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

١٨- التدخين وأمراض الفم لمصباح أحمد قويدر، الوحدة الصحية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١٩- التدخين وسَرَطان الرئة والأمراض الأخرى لنبيل صبحي الطويل، دار العربية ببيروت ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م.

٢٠- التعليقات الحسان على تحقيق البرهان في شأن الدُّخَان الذي يشربه الناس الآن لمشهور بن حسن آل سلمان (بحاشية تحقيق البرهان المتقدم)، دار السلف بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

٢١- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين لمحمد حجّي، دار المغرب ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

٢٢- خُلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمُحِبّي (ت١١١١هـ)، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

٢٣- خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام لأحمد بن زَيْني دَحْلان (ت ١٣٠٤هـ)، المطبعة الخيرية بحي الجمالية بمصر، الطبعة الأولى ١٣٠٥هـ.

٢٤- خواطر دينية لعبد الله بن محمد بن الصِّدِّيق (ت١٤١٣هـ)، مكتبة القاهرة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

٢٥- الدُّخَان ودخوله إلى الشرق لأمين مَعْلُوف (ت١٣٦٢هـ) - ضمن مجلة المُقْتَطَف، المجلد (٥٥)، الجزء (٦)، الصفحات (٤٦٢ - ٤٦٣)، ١٣٣٨هـ / ١٩١٩م.

٢٦- الدر المختار على متن تنوير الأبصار لعلاء الدين محمد بن علي الحَصْكَفي الدمشقي (ت١٠٨٨هـ) - طبع على حاشية رد المحتار لابن عابدين -، دار الطباعة بمصر ١٢٨٦هـ.

٢٧- دَوْر العرب في اكتشاف العالم الجديد لفهمي توفيق مقبل، دار الثقافة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

٢٨- رسالة في حكم التُّتُن والقَهْوة لمحمد بن عبد الله العيني الشهير بفقهي (ت١١٤٧هـ)، نسخة مكتبة تشستر بيتي بدَبْلِن في أيرلندا، ورقمها: (٤٤٠٠).

٢٩- رسالة في الشاي والقَهْوة والدُّخَان لجَمَال الدين القاسِمي (ت١٣٣٢هـ)، أتمها سنة ١٣٢٢هـ.

٣٠- رسالة مختصرة من الفوائد الفاخرة في أمور الآخرة - كلاهما - للمُلاّ حسين ابن إسكندر الرُّومي الحنفي (ت نحو ١٠٨٤هـ) ، نسخة مكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية، ورقمها: (٣٨٥٤).

٣١- روائع الطب الإسلامي (المحرمات في الإسلام وأثرها في صحة الفرد والمجتمع، الجزء الثالث) لمحمد نزار الدّقر، دار المعاجم بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

٣٢- السيجارة مقبرة المدخنين لشعيب الغباشي، دار الفضيلة بالقاهرة.

٣٣- الصّحاح في اللغة والعلوم لنديم مَرْعَشلي وأسامة مَرْعَشلي، دار الحضارة العربية ببيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٤م (١٣٩٤هـ).

٣٤- الصلح بين الإخوان في إباحة الدُّخَان لعبد الغني بن إسماعيل النَّابُلُسي (ت ١١٤٣هـ)، نسخة دار الكتب الوطنية بالمجمع الثقافي في أبو ظبي، ورقمها: (٣٧٠ / ٣٢).

٣٥- الطب الوقائي بين العلم والدِّين لنضال سميح عيسى، دار المكتبي بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٣٦- العرب قبل كُوْلُمْبُس (رحلات عرب الأندلس وشمال أفريقيّة إلى جزر الأطلسي والأمريكتين: حصر للمعلومات والنتائج) للطف الله قاري، دار القلم بدمشق والدار الشامية ببيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٣٧- عُمدة المحتاج في عِلمي الأدوية والعلاج - ويعرف بالمادة الطبية - لأحمد بن حسن الرَّشِيدي (ت١٢٨٢هـ)، دار الطباعة الخديوية ببُوْلاق بمصر١٢٨٣هـ.

٣٨- فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك لمحمد بن أحمد المعروف بعِلِيْش (ت١٢٩٩هـ)، المطبعة الكبرى الميرية ببُوْلاق بمصر، الطبعة الأولى ١٣٠٠هـ.

٣٩- فتوى في حكم شرب الدُّخَان لمحمد بن إبراهيم آل الشيخ (ت١٣٨٩هـ)، نشرة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٤٠- لطائف أخبار الأُول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول لمحمد بن عبد المعطي الإسحاقي المَنوفي (ت١٠٦٠هـ)، المطبعة الميمنية بالقاهرة ١٣١٠هـ.

٤١- محيط المحيط (قاموس مطول للغة العربية) لبطرس البُسْتاني (ت ١٣٠٠هـ)، مكتبة لبنان ببيروت ١٩٨٣م (١٤٠٥هـ).

٤٢- مشكلة التدخين والحل للطفي عبد العزيز الشربيني، دار النهضة العربية ببيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م (١٤٢٠هـ).

٤٣- مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى لمصطفى بن سعد السُّيُوطي الرُّحيباني الدمشقي (ت١٢٤٣هـ)، المكتب الإسلامي ببيروت، الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

٤٤- المعجم الوسيط (إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، دار الدعوة بإستنبول ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٤٥- مواد لتاريخ الوَهّابيين لجوهان لودفيج بُوركهارت (ت١٢٣٢هـ)، ترجمة عبد الله الصالح العثيمين، نشرة جامعة الملك سعود بالرياض، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

٤٦- الموسوعة الفقهية (الصادرة عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت) الجزء العاشر، طباعة ذات السلاسل بالكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٤٧- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني لمحمد بن الطيب القادري (ت١١٨٧هـ)، تحقيق محمد حِجّي وأحمد التوفيق، دار المغرب بالرباط ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

٤٨- نفح العُود في سيرة دولة الشريف حُمُود لعبد الرحمن بن أحمد البَهْكَلي (ت١٢٤٨هـ) وتكملة الحسن

بن أحمد المعروف بعاكش (ت١٢٨٩هـ)، تحقيق محمد بن أحمد العقيلي، نشرة دارة الملك عبد العزيز بالرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٤٩- النوازل لعلي بن عيسى الحَسَني العَلَمي، تحقيق المجلس العِلْمي بفاس، نشرة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة المغربية (المجلد الثالث) ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٥٠- هدية الإخوان في شجرة الدُّخَان لمحمد مرتضى الزَّبيدي (ت١٢٠٥هـ)، بعناية حمد الجاسر - ضمن مجلة العرب، الصادرة عن دار اليمامة بالرياض، السنة (١١)، الجزءان (١-٢)، الصفحات (١١٤ - ١٣٠)، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

٥١- الهدية السُّنِّيّة: التحفة الوهابية النجدية لجميع إخواننا الموحدين من أهل الملة الحنيفية والطريقة المحمدية (مجموعة خمس رسائل لكبار أئمة نجد وعلمائها)، جمع وترتيب: سليمان بن سَحْمان النَّجدي (ت١٣٤٩هـ)، تعليق السيد محمد رشيد رضا، مكتبة التوفيق بالرياض ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٨م.

٥٢- وَفَيَات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العِيان لابن خَلِّكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ببيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

٥٣- 53 - Grand Larousse Universel , Tome 14 , Larousse diffusion - Paris, 1991.

Abstract

Tobacco: its Identity And History

Dr. Qasim Ali Saad,

This article aims to discuss the history of using tobacco and its negative effects on Muslim societies. The researcher starts by showing the identity of tobacco before moving to list the views of scholars and physicians who discussed the different points related to tobacco. The article then moves to explain the history of the phenomena through the different historical periods and explains how the Muslims rulers were keen to combat it.

UNITED ARAB EMIRATES-DUBAI
COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

ACADEMIC REFEREED JOURNAL OF
ISLAMIC & ARABIC STUDIES COLLEGE

EDITOR IN-CHIEF
Prof. MUHAMMED KH. AI DANNA

EDITING SECRETARY
DR. MUSTAFA ADNAN AL ETHAWI

EDITING BOARD
PROF. RIDWAN M. BIN GHARBIH
DR. M. ELHAFIZ AL-NAGER
DR. UMAR BU QARURA

ISSUE NO. 26
Shawwal, 1424H - December 2003G

ISSN 1607- 209X

This Journal is listed in the **"Ulrich's International Periodicals Directory"**
under record No. **157016**

ISSN 1607-209X

UNITED ARAB EMIRATES- DUBAI
COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

Academic Refereed Journal of

ISLAMIC & ARABIC STUDIES COLLEGE

ISSUE NO. 26
Shawwal, 1424H - December 2003G